

ابو سعيد السيرافي (١)

وكتاب سيبويه

الدكتور ابراهيم السامرائي
استاذ في قسم اللغة العربية

هو أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي النحوي . كان أبوه من أهل سيراف وسيراف من مدن ساحل الخليج الشرقي ، لا تبعد كثيراً عن البصرة قاعدة المسلمين التي خرج منها الاسلام وانتشر في شرقي الدولة الاسلامية . وهذه الاسرة الفارسية حديثة العهد بالاسلام ، فقد كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد ويعني هذا في الفارسية مبارك المولد فأسلم مع من أسلم في هذه البيئة الاسلامية .

وما كان لعبدالله هذا أن يحفظ التاريخ ذكره وخبره لولا أن قدر لابنه أبي سعيد أن يكون من أعلام العربية البارزين ، فقد كان من أكابر الفضلاء وأفاضل الادباء ، لا نظير له في علم العربية كما ذكر ابن الانباري (٢) . وكان ذا معرفة واسعة . قال ابن الفرات : كان أبو سعيد عالماً فاضلاً معدوم النظير في علم النحو خاصة . وذكر رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسين : أن أبا سعيد كان يدرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي والحساب وذكر علوماً سوى هذه . وكان من أعلم الناس بنحو البصريين . وانتحل في الفقه مذهب أهل العراق . وقال

(١) انظر ترجمته في : انباه الرواة ٣١٣/١ ، الانساب للسمعاني ٣٢١ ب ، بغية الوعاة ٢٢١ ، تاريخ بغداد ٣٤١/٧ ، الكامل في التاريخ لابن الاثير ٩٧/٧ ، روضات الجنات لمحمد باقر الخونساري ٣١٨ ، شذرات الذهب ٦٥/٣ ، طبقات النحويين للزبيدي ١٢٩ ، اللباب لابن الاثير ٥٨٦/١ ، معجم الادباء ١٤٥/٨ ، معجم البلدان ١٩٣/٥ ، النجوم الزاهرة ١٣٣/٤ ، نزهة الالباء (بتحقيق السامرائي) ٢١١ .

(٢) نزهة الالباء ٢١٢ .

رئيس الرؤساء : وقرأ على ابن مجاهد في بغداد القرآن ، وقرأ على أبي بكر بن دريد اللغة ، ودرسا جميعاً عليه النحو ، وقرأ على أبي بكر بن السراج وعلى أبي بكر المبرمان النحو وقرأ عليه أحدهما القراءات ودرس الآخر عليه الحساب^(٣) . وكان زاهداً لا يأكل إلا من كسب يده ، ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشرة ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه . وكان يذكر عنه الاعتزال ولم يكن يظهر ذلك .

وقد قال القفطي في « الانباء » : انه ذكر أخباره موجزة لانه أفرد لها مصنفاً سماه : « المفيد في أخبار أبي سعيد » ونص على أنه « كتاب ممتع » . وقد صنف تصانيف كثيرة أكبرها « شرح كتاب سيبويه » ولم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه ، ولو لم يكن له غيره لكفاه فضلاً . وقد كان محسداً بسبب هذا الشرح الكبير « للكتاب » ، فكان معاصروه من أعلام العربية يعجبون به ، وعجز عن مثله شيوخ لهم كانوا معروفين بسعة الاطلاع وطول الباع . وكان أبو علي الفارسي خاصة يتقد غيظاً عليه ، وقد حال غيظه إلى جحود ، فأخذ هو وأصحابه يفضلون الرماني عليه حين يطلب اليهم أن يوازنوا بينه وبين أبي سعيد . وعاصر أبا سعيد السيرافي أبو علي الفارسي وأبو الحسن الرماني ، وكانوا قد تلمذوا جميعاً لأبي بكر بن السراج ، ولكن كلا منهم كان قد انفرد بشيء عرف به ، فقد كان أبو علي الفارسي يعني بأصول النحو وبما كان يسمى في عهده بفقته اللغة . واهتم أبو الحسن الرماني بالاعتزال وكان ينصرف إلى الدراسات القرآنية ، فقد كتب في اعجاز القرآن والدفاع عنه ، شأنه في ذلك شأن المعتزلة الاولين الذين كانوا يقارعون الخصوم ، وكتابه « النكت في اعجاز القرآن »^(٤) يوضح هذا المنحى . أما نحو أبي الحسن الرماني ففيه يقول معاصره أبو علي الفارسي : « ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء » ، وان كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء » .

(٣) انباء الرواة ١/ ٣٢٣ .

(٤) طبع ضمن كتاب « ثلاث رسائل في اعجاز القرآن » القاهرة دار

المعارف .

وقد غلب المنهج الكلامي على علم أبي سعيد في النحو وسائر علوم العربية كما سنتين في شرحه للكتاب . وقد كان هذا المنهج طابع الدرس في القرن الرابع ، ولم يكن الأفلات منه ميسراً للدارسين أمثال أبي سعيد ، وليس أدل على هذا من المناظرة التي جرت بينه وبين مثنى بن يونس القنائبي الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح بن الفرات ، وتصدي أبي سعيد له . وكان قد حضر هذه المناظرة من الاعلام : الخالدي وابن الاخشيد والكندي وابن أبي بشر وقدامة بن جعفر وغيرهم . وقد دهش ابن الفرات وجميع من حضر لمنطق أبي سعيد وقوة جدله وروعة بيانه وأشار الى ذلك ياقوت في « معجمه » وأبو حيان في « المقابسات » و « الامتاع »^(٥) . وقد كان أبو حيان التوحيدي تلميذاً باراً بأستاذه أبي سعيد فقد أعجب به أيما اعجاب وتشبه به وأخذ عنه كثيراً حتى تأثرت شخصية التلميذ بشخصية شيخه الاستاذ ، فأبو سعيد في نظر تلميذه عالم العالم وشيخ الدنيا ومقنع أهل الارض^(٦) . ويعتقد لويس ماسينيون أن أبا سعيد السيرافي « علّم تلميذه في سن مبكرة أسرار علم التصوف »^(٧) حتى صار التوحيدي شيخاً في الصوفية كما يذكر ياقوت .

وقد ورد ابن العميد الى بغداد فكرم العلماء وعمر بهم مجلسه وبأعلام اللغة والأدب البغداديين اذ ذلك ، وقد وصل أبا سعيد والرماني بمال ، وأنهما في مجلس ابن العميد اذ بأبي الحسن العامري والفيلسوف النيسابوري يحضر هذا المجلس ، وقد تكلموا في أشتات من الموضوعات وعرضوا لمشكلات في اللغة والأدب ومختلف ألوان المعرفة ، وفي هذه المناسبة يسأل العامري أبا سعيد فيوفق الى جواب يرضي الحاضرين ويعجب به ابن العميد مع قوة هذا المناظر وخطره ، ومنزلته في نفوس الحاضرين . وكان أبو سعيد يقول : « ما دهيت قط بمثل ما دهيت به اليوم » يريد يوم اجتماعه بأبي الحسن النيسابوري الفيلسوف .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ٨/١٩٠ ؛ التوحيدي المقابسات (شيراز ١٣٠٦)

٧٢ ، الامتاع ١٠٨/١ - ١٢٨ .

(٦) التوحيدي ، المقابسات ٢٣

Recueil des textes inédits concernat l'histoire de la mystique (٧)

en pays de l'Islam p. 86.

ويتحدث الاندلسي الى ياقوت فيقول له : « فارقت بلدي في أقصى المغرب طلباً للعلم ، وابتغاء مشاهدة العلماء ، فكنت الى أن دخلت بغداد وتلقيت أبا سعيد ، وقرأت عليه كتاب سيويه نادماً سادماً في اغترابي عن أهلي ووطني ، من غير جدوى في علم أو حظ من الدنيا ، فلما سعدت برؤية هذا علمت أن سعيي قرن بسعدي وغربتي اتصلت ببغيتي وأن عنائي لم يذهب هدرآ ، وأن رجائي لم ينقطع يأساً » (٨) .

«الكتاب» وشروحه

كتاب سيويه من أشهر الكتب النحوية ، أو قل من أشهر كتب العربية ذلك أن مادته الضخمة لا تقتصر على النحو والصرف ففيه أشتات من مواد مختلفة . ولهذا الكتاب قيمة تاريخية ، فهو من أوائل الكتب التي وصلت إلينا عما دون في علوم العربية ، أو قل هو أول كتاب في النحو وصل إلينا عن القرن الثاني الهجري . وقد جاء في أخبار النحويين الإقليميين أن عيسى بن عمر كان قد صنّف نيّفاً وسبعين تصنيفاً عدت ، ومنها تصنيفان كبيران اسم أحدهما (الاکمال) ، والآخر (الجامع) . وقد قالوا : ان الجامع هو كتاب سيويه ، زاد فيه وحشاه ، وسأل مشايخه عن مسائل منه أشكلت عليه فذكرت له فأضافها . وأنه لما أحضره الى الخليل بن أحمد ليقرأه عليه عرفه الخليل وأنشد :

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

فأشار الى الجامع بما يشار به الى الحاضر وهي لفظة هذا (٨) .

ولا تشغلنا هذه الأقوال ، كما لا نريد أن نبحت في صحة نسبة الكتاب لسيويه .

وللكتاب قيمة علمية تجعلنا في حيرة من أمر هذا النحو الذي يطالعنا بأصوله وفروعه وتخريجاته ثم بمصطلحه الفني الخاص . ومن مجموع هذا نستطيع أن

(٨) القفطي ، انباء الرواة ٣٧٥/٢ و ٣٤٧/٣ .

ندرك أن النحو كان قد سلخ من عمره حبة طويلة بحيث وصل إلينا على هذا النسق الذي نجده في « الكتاب » وربما بات أقرب إلى اليقين القول بأن نشأة النحو كانت منذ أيام أبي الأسود الدؤلي .

يبدأ سيبويه « كتابه » بمقدمة يسيرة يعرض فيها لأقسام الكلام وحركات الأعراب والبناء أو مجاري أواخر الكلم ، كما يعرض للمسند والمسند إليه . وقد يكون من المناسب أن نشير إلى أن مسألة الاسناد والمسند والمسند إليه تطالعتنا أول مرة في هذا السفر الجليل .

وان النحويين الآخرين ممن تقدموا سيبويه أو عاصروه لم يشيروا إلى هذه الحقيقة اللغوية إشارة واضحة ، كما خلت كتب المتأخرين من الإشارة إلى هذه المصطلحات النحوية .

وقد عرض في هذه المقدمة لما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى ، أو اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى ، واختلاف فيهما جميعاً ، ولما يعترى اللفظ من أسباب الذكر والحذف ، ولما يلحق بالمعنى من حسن أو قبح ، واستقامة أو إحالة . ويختم هذا بالكلام على ما يحتمله الشعر من الضرورات . ثم ينتقل بعد هذا العرض الواسع إلى الكلام على الفاعل في الباب الأول من الكتاب . غير أن حاجي خليفة في « كشف الظنون » نفى أن يكون « الكتاب » قد اشتمل على مقدمة قال : « ليس فيه ترتيب ولا خطبة ولا خاتمة »^(٩) . وصاحب كشف الظنون لا يعتبر المادة التي مهد بها سيبويه لكتابه ولا يرى فيها نوعاً مما أسماه « خطبة » وقد درج المحدثون ممن كتبوا عن الكتاب على ما ذهب إليه حاجي خليفة فقال علي النجدي من أساتذة النحو في مصر « إن الكتاب ليس له مقدمة ولا خاتمة »^(١٠) .

وقد قسم سيبويه مادة الكتاب إلى قسمين فأوعب المادة النحوية في الجزء الأول من كتابه ، وجعل الجزء الثاني خاصاً بالصرف . على أن هذا لا يعني أن الكتاب قد اقتصر على النحو والصرف فقد أشرنا إلى وجود مواد أخرى هي الصق

(٩) حاجي خليفة ، كشف الظنون ١٤٢٦/٢ .

(١٠) علي النجدي ، سيبويه امام النحاة : ١٢٤ .

بالبلاغة مثلاً كما نجد مادة لغوية تتصل بالقراءات واللهجات • غير ان هذا الحشد من المواد مما اعتبره سيويه ومعاصروه من بناء العربية •

ولا أريد أن أعرض لنقد مادة الكتاب وطريقة تأليفها وتبويبها فان ذلك لا يدخل في الناحية التي أشغل نفسي بإيضاحها والاعراب عنها وهي قيمة الكتاب وأصالته • وقد أشرت الى ذلك ، ومن المفيد أن نقول : ان الكتاب قد استحوذ على اهتمام النحويين الاقدمين فقرأوه وأقرأوه ونقلوا عنه ، سواء في ذلك من عاصره ومن خلفه • قال أبو عبيدة : لما مات سيويه قيل ليونس بن حبيب : ان سيويه قد ألف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل • قال يونس : ومتى سمع سيويه هذا كله من الخليل ؟ جيئوني بكتابه فلما نظر فيه رأى كل ما حكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه كما صدق فيما حكاه عني» (١١) •

وفي هذا الخبر اشارة الى وجود الخليل في مادة الكتاب وأن سيويه نقل كثيراً عن الخليل بن أحمد وهو يشير الى هذا في مواضع كثيرة من الكتاب ، وكما قال سيويه ، وسألته أو قال ، من غير أن يذكر القائل فانما يعنيه •

وقد تكلم الاخفش على كتاب سيويه وشرحه وأشار اليه وهو الذي نبه على عواره كما قال الكسائي (١٢) • وقال أبو الطيب اللغوي « وهو (أي سيويه) أعلم الناس بالنحو بعد الخليل وألف كتابه الذي سماه قرآن النحو وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل» (١٣) •

وقد أكثر الاولون في هذه المسألة ومن ذلك ما ذكره ابن النديم : « قرأت بخط أبي العباس ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيويه اثنان وأربعون انساناً منهم سيويه • والاصول والمسائل للخليل» (١٤) •

ومهما قيل في مشاركة الخليل وغيره من شيوخ سيويه في الكتاب فان

(١١) ياقوت ، معجم الادباء ١١٧/١٦ •

(١٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ٦٨ •

(١٣) المصدر السابق ٦٥ •

(١٤) ابن النديم ، الفهرست ٧٦ وانباء الرواة ٣٤٧/٢ •

شخصيته ظاهرة كل الظهور فيه ، فقد نقل كثيراً من آراء الخليل وآراء يونس والاخفش وغيرهم ولكنه في كثير من المواضع يبدي رأيه بوضوح وقد يجيء هذا مخالفاً أحياناً لما ينقله من آراء شيوخه • وقد اتضح من استقراءنا للكتاب أنه كان يكبر الخليل ويجله ايما اجلال ، ولكن هذا لم يمنعه أن يضعف رأيه ويرد عليه قال : « وزعم الخليل انه يجوز أن يقول الرجل : هذا رجل أخو زيد ، اذا أردت ان تشبّهه بأخي زيد ، وهذا قبيح ضعيف لا يجوز الا في موضع الاضطرار » (١٥) •

وهو حين يبحث مسألة من المسائل يعرض للآراء المختلفة فيوازن بينها ويؤيد أحدها ميّناً وجه القوة فيه ومن ذلك قوله : « وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال : أختار يا قاضي لانه ليس بمنون كما اختار القاضي • وأما يونس فقال : يا قاض • وقول يونس أقوى لانه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر لان النداء موضع حذف يحذفون التنوين ويقولون يا حار ويا صاح ويا غلام أقبل » (١٦) •

وكتاب سيبويه من الكتب الخالدة التي حظيت باهتمام الاقدمين وعناية المحدثين • فلم يعرف أن القدماء اهتموا بشيء اهتمامهم بهذا « الكتاب » فقد أقبلوا عليه باحثين ودارسين وناقدين وأكثروا الرحلة في طلبه ، روى سلمة عن الاخفش قال : كان الكسائي جاعاً بالبصرة فسألني أن أقرأ عليه أو أقرئه كتاب سيبويه ، ففعلت فوجه اليّ خمسين ديناراً وجبة وشيء (١٧) •

وكان المبرد يقول لمن يطلب قراءة الكتاب عليه « هل ركبت البحر تعظيماً له واستعظماً لما فيه » (١٨) •

وقال الجاحظ : « وهو كتاب لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله • وجميع كتب الناس عليه عيال » (١٩) •

(١٥) الكتاب ١ / ١٨١ •

(١٦) الكتاب ٢ / ٢٨٩ •

(١٧) انباء الرواة ٢ / ٣٧ و ٢٧٣ •

(١٨) ابن الانباري ، نزهة الالباء ٣٩ •

(١٩) القفطي ، انباء الرواة ٢ / ٣٥١ •

وبعد فهذا ما أردت أن أوجزه عن « الكتاب » الذي شغل الناس قديماً وما زال شغلاً لطائفة من المعنيين بالدراسات اللغوية والنحوية .

شروح «الكتاب»

قلت : ان القدماء قد اهتموا بالكتاب ورأوا أن الحاجة تدعو الى شرحه وايضاحه فقد جاءت عبارته في كثير من الاحيان موجزة ، وربما كان ايجازها سبباً في غموضها وابهامها قال ابن كيسان^(٢٠) : « نظرنا في كتاب سيويه فوجدناه في الموضوع الذي يستحقه ، ووجدنا ألفاظه تحتاج الى عبارة وايضاح لانه كتاب ألف في زمان كان أهله يألفون مثل هذه الالفاظ فاختصر على مذاهبهم »^(٢١) .

وعلى هذا فقد شرحه الاوائل أنفسهم ومن هذه الشروح ما جاء ذكره في طبقات النحويين وفي الفهارس المطولة .

وقد جاء أن أبا عثمان بكر بن محمد المازني (المتوفى ٢٤٨) قد وضع تفسير كتاب سيويه^(٢٢) .

وقد شرح الاخفش أبو الحسن علي بن سليمان (المتوفى ٣١٥) « الكتاب » وفسر (رسالته)^(٢٣) ، والمقصود بالرسالة المقدمة التي سبق الكلام عليها .
ولأبي بكر محمد بن السري بن السراج (المتوفى ٣١٦) شرح للكتاب أيضاً^(٢٤) .

ومن هؤلاء النحويين أبو بكر محمد بن علي مبرمان العسكري (المتوفى ٣٤٥) فقد شرح « الكتاب » ولم يتمه . وله شرح لشواهد « الكتاب »^(٢٥) .

ومنهم أيضاً صاحبنا أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي المتوفى (٣٦٨)

-
- (٢٠) الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان أبو محمد النحوي المتوفى سنة ٣٥٨ . انظر انباه الرواة ١/٣١٩ .
(٢١) البغدادي ، خزانة الادب ١/١٧٩ .
(٢٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢/١٤٢٨ .
(٢٣) السيوطي ، بغية الوعاة ٣٣٨ .
(٢٤) المصدر السابق ٤٤ .
(٢٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢/١٤٢٨ .

فقد شرحه كما صنف كتاب « المدخل الى كتاب سيويه » (٢٦) .
وقد صنف في « الكتاب » ، أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (المتوفى ٣٨٤)
تصانيف كثيرة (٢٧) .

وقد كثرت التصانيف التي وضعت عن « الكتاب » في شرحه واختصاره
وتهديبه أو الاستدراك عليه أو شرح شواهده والتعليق عليها . وفي كل هذا دليل
قاطع على قيمة الكتاب وأهميته في الدراسة النحوية واللغوية .

شرح السيرافي

لقد قلت : ان أبا سعيد كان على معرفة واسعة بعلوم العربية جميعها ، وكان
أيضا ملماً بعلوم أخرى غير العربية . وقد قيل انه من أعلم الناس بنحو البصريين .
وكان أبا سعيد قد أراد أن يلم بهذا المذهب البصري من الدراسات النحوية .
وقد بدا له أن يأخذ عن الكوفيين آراءهم في هذا العلم . وقد عرف من كبراء
الكوفيين أبا بكر بن شقير (٢٨) وكان يعد في طبقة أبي بكر السراج من البصريين .
وقد أخذ السيرافي النحو عن أبي بكر السراج وعن أبي بكر مبرمان ، ولا بد
ان يكون قد أخذ شيئاً عن نحو الكوفيين مما كتبه ابن شقير الذي أدرك هذه
الفترة التاريخية .

وقد تيسر لي أن أبصر في نسخة من نسخ السيرافي المحفوظة في دار الكتب
المصرية ذات العدد ٣٦١ نحو ، وهي نسخة كاملة في ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبدأ
الاول منها بما بديء به « الكتاب » وينتهي باب (ما يقع موقع الاسم المتبداً ويسد
مسده) وهو في ١٧٢٠ صفحة .

ويبدأ المجلد الثاني من باب الابتداء وينتهي باب (اختلاف العرب في تحريك

(٢٦) السيوطي ، بغية الوعاة ٢٢٢ .

(٢٧) القفطي ، انباه الرواة .

(٢٨) هو أحمد بن الحسن بن العباس بن الفرج بن شقير أبو بكر النحوي
المتوفى سنة ٣١٥ هـ . انظر ترجمته في نزهة الالباء ١٧١ (طبعة الدكتور ابراهيم
السامرائي بغداد ١٩٥٩) وفي بغية الوعاة ١٣٠-١٣١ .

الحرف الاخير) وهو في ١٠٣٤ صفحة • ويبدأ المجلد الثالث باب (المقصود
والممدود) وينتهي في آخر الكتاب وهو في ٩٠٦ صفحات • وقد تم لي هذا في سنة
• ١٩٥٦

ولست أدعي أنني أتيت على كل ما في هذا السفر النفيس ولكنني الممت بأسلوبه
وطريقته في الشرح وما استدرك به على سيويه ، ثم جاء الزميل الفاضل الدكتور
مازن المبارك من أساتذة كلية الآداب في دمشق فعرض للموضوع في رسالته البارعة
عن الرماني^(٢٩) • فأفدت من ذلك فوائد كثيرة •

وقد أطل الأقدمون الكلام على هذا الشرح فأطروه أيما أطراء وأقبلوا عليه
يتدرسونه • ولعل بفض أبي علي الفارسي للسيراني كان بسبب من هذه الشهرة
التي أصابها السيراني بشرحه الكبير للكتاب •

يقول أبو حيان في « الامتاع والمؤانسة » في الكلام على أبي علي الفارسي
وعلاقته بالسيراني « وهو متقد بالغيظ على أبي سعيد وبالحسد له كيف تم له تفسير
كتاب سيويه من أوله الى آخره بغريبه وأمثاله وشواهد وأبياته »^(٣٠) •

يبدأ السيراني شرحه دون تمهيد أو مقدمة يشرح فيها طريقته ، ولكن النظر
في الكتاب بين شيئاً مما ذهب اليه في الشرح • كان يأتي بشيء من كلام سيويه
ثم يعقبه بالشرح وذلك كما فعل في (باب ما لا تغير فيه لا الاسماء عن حالها التي
كانت عليها قبل ان تدخل لا)^(٣١) •

وقد فعل مثل ذلك في (باب النصب فيما يكون مستثنى مبدلاً)^(٣٢) • غير أنه
لم يلتزم هذه الطريقة في « شرحه » كله ، فانه قد يقدم لكلام سيويه بما ويوضحه
كما في (باب الهمز)^(٣٣) • وقد يأتي بمادة سيويه بمعناها لا بألفاظها ، وذلك لان
عبارة سيويه تغيب أحياناً كثيرة على كثير من القراء فهي غامضة يعتورها الابهام •

(٢٩) مازن المبارك ، الرماني النحوي (دمشق ١٩٦٣) ص ١٣٦ •

(٣٠) التوحيد ، الامتاع والمؤانسة ١ / ١٣١ •

(٣١) الكتاب ١ / ٣٥٤ والشرح ٣ / ٩٢ عن كتاب الرماني النحوي ص ١٢٨ •

(٣٢) الكتاب ١ / ٣٦٣ •

(٣٣) الكتاب ٢ / ١٦٣ •

وكان السيرافي كان يهدف الى أن يكون شرحه واضحاً يفهمه الدارسون . وهذا هو منهج أبي سعيد في بسطه لمادة النحو ، فقد قالوا : « النحويون في زماننا ثلاثة : واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا استاذ وهو السيرافي » (٣٤) . والى هذا كان يرمي ابنه يوسف في قوله : « وضع أبي النحو في المزابيل في الاقناع » (٣٥) .

وهو في شرحه لا يقتصر على ما جاء به سيويه وإنما يعرض لمسائل كثيرة ولا سيما آراء النحاة الذين خلفوا سيويه . فقد عرض مثلاً لأقوال المبرد التي خالف فيها سيويه وقد اشتهرت هذه الأقوال فعلق عليها النحويون ، ومن ذلك ما فعله ابن ولاد المتوفى سنة ٣٣٩ هـ في كتابه « الانصار » الذي انتصر فيه لسيويه ورد أقوال المبرد . وقد وضع الرماني كتابه في « الخلاف بين سيويه والمبرد » ، ومثل هذا ما جاء في سر صناعة الاعراب (٣٦) لابن جني فقد رد على المبرد مؤيداً آراء سيويه . وقد رد السيرافي على أقوال المبرد حين تعرض في الابواب التي تناولها سيويه . كما رد أقوال الكوفيين التي لم يعرض لها سيويه في « الكتاب » .

وقد استدرك السيرافي أموراً على سيويه فقال في (باب وجوه القوافي في الانشاد) (٣٧) : « واعلم أنني لو اقتصر على تفسير ألفاظ سيويه فيما ذكره من القوافي لسقط كثير مما يحتاج اليه فيها ، لأنه لا يستوعب ذكرها ولا قصد الى استيفاء معرفتها وما يتعلق بها ، فعملت على ان أتقصى ذكرها وما يتعلق به مع شرح كلامه » (٣٨) .

وقد نسب السيرافي شيئاً من الخطأ أو السهو الذي وقع في كتاب سيويه الى الناسخ وذلك في قوله : « قال - أي سيويه - وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون أرض وآراض ، أفعال كما قالوا أهل آهال » (٣٩) قال أبو سعيد : والذي عندي أن

(٣٤) ياقوت ، معجم الادباء ١٤ / ٧٥ .

(٣٥) ياقوت ، معجم الادباء ٨ / ١٤٩ ، بغية الوعاة ٢٢٢ .

(٣٦) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ١ / ٢١١ .

(٣٧) الكتاب ٢ / ٢٩٨ .

(٣٨) الشرح ٥ / ١٧٥ .

(٣٩) الكتاب ٢ / ١٩٩ .

هذا غلط وقع في الكتاب من جهتين ، احدهما أن سيويه ذكر فيما تقدم أنهم لم يقولوا آراض ولا أرض • والاخرى أن هذا الباب انما ذكر فيه ما جاء جمعه على غير الواحد ، ونحن اذا قلنا أنه أرض وآراض ، وأهل وآهل فهو على الواحد ، كما يقال زند وأزند ، وفرخ وأفراخ ، وان كان الأكثر فيه أفعل وأظنه أرض وآراض كما قالوا أهل وأهل فيكون مثل ليلة وليال فيشاكل الباب « (٤٠) » •

وقد اهتم أبو سعيد بشواهد سيويه فهو ينسبها الى قائليها ثم يقرن ذلك بالرواة ويستدرك عليهم ويناقش الروايات مقيدا كل رواية بالمصدر الذي أخذت منه ويتحرى النسبة الصحيحة ، ويرد على النحويين في تمسكهم بالقول الضعيف والشاهد المصنوع كما ينسب كل قول الى صاحبه مجتهدا في ذلك متوخياً الضبط والصحة • ومن ذلك تعقيبه على رأي ليونس بن حبيب من البصريين رواه المبرد في « المقتضب » غير أنه لم يجده في (الكتاب) فقال : وما أدري من أين لأبي العباس هذه الحكاية عن يونس « (٤١) » •

وهكذا فقد جاء (شرح) أبي سعيد للكتاب شافياً وافياً سهلاً على الدارسين مبصراً بمبهمه وغامضه ، ومن أجل هذا كسب الشهرة الذائعة طوال القرون •

مذهب السيرافي في شرحه •

ظهر علم السيرافي في النحو واللغة في هذا الشرح الفخيم • وهو مثل واضح لسيطرة المنهج الكلامي على ثقافته • فهو لا يكاد ينتهي من تعليل على طريقة المتكلمين حتى يبدأ بتعليل آخر • ولا يكاد ينتهي من معالجة مشكلة حتى يأخذ بالقارىء الى مشكلة أخرى ثم الى ثالثة فرابعة •

والكثير من هذه التعليلات والتفسيرات لم تخدم اللغة ولا هي من مادتها ، ولكن ذلك كان هوى الناس في ذلك العصر ، ولكل عصر هوى يأخذ الناس أنفسهم به • وكان لسيطرة هذا المنهج الكلامي والمنطق الذي لا تتخرج في رده الى المنطق الأرسطي ، نتائج سلبية في الدراسة النحوية واللغوية ، ذلك أن طبيعة اللغة والنحو

(٤٠) الشرح ٣٨/٥ عن الرمانى النحوي لمازن المبارك •

(٤١) مقدمة الرد على النحاة للدكتور شوقي ضيف : ٤١-٤٢ •

تأبى هذا المنطق الجديد ، ومن أجله فسد شيء من هذه العلوم •

وليس أدلّ على هذا من المناظرة التي جرت بينه وبين مثنى بن يونس القنائي الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح بن الفرات ، وتصدي أبي سعيد له ، وكان قد حضر هذا المجلس الخالدي وابن الاخشيد والكندي وابن أبي بشر وقدامة بن جعفر وغيرهم في مناظرة طويلة دهش ابن الفرات والحاضرون لها ، وأعجبوا بمنطقه وقوة جدله وروعة بيانه ، وقد سبق الكلام على هذا •

ومذهب السيرافي مذهب البصريين عامة ، فهو اذا عرض لرأي من آرائهم قال عنهم « أصحابنا » ولذا فهو يؤيدهم ويدفع عن آرائهم ويرد على الكوفيين • وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في « شرحه » فقد عرض لقول الفراء وعامة الكوفيين في (لولا) وأنها ترفع ما بعدها ، ورأي سيويه خلاف ذلك لان ما بعدها مرفوع بالابتداء • ويعرض السيرافي لهذين الرأيين ويناقشهما فيقول : وانصحح ما قاله سيويه (٤٢) •

ومذهب البصريين في القياس معروف ، فهو قائم على القياس ولكنه على ماشاع واشتهر ، ولا يابهنون بالقليل النادر • والقياس عند السيرافي ما وافق الفصيح من كلام العرب ولذلك كثر اعتماده على الشاهد الفصيح الذي صحّت نسبته فهو يقول مثلا « والقول الذي ذهب اليه سيويه هو الصحيح • وشاهده القرآن والقياس » (٤٣) • وبعد فهذا عرض سريع لما في هذا السفر الجليل من مادة ممتعة تعين على تفهم شيء من تاريخ العربية الذي ما زلنا نجهل الكثير من صفحاته المطوية •

(٤٢) الشرح ٢/٣ •

(٤٣) الشرح ١٠٢/٣ •